النقد والتقويم لمنتقد عقائد الماتريدية

بِسمِ اللَّه الرَّحْمنِ الرحيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين.

وبعد :

فلما كان الدفاع عن الدين واجبا على كل قادر، وكذلك التمييز بين الصحيح والباطل مما يقوله من ينصب نفسه دالاً على الحق الذي يراه فيه، أو ينصبه غيره ليقوله.

والجدال بالتي هي أحسن لا شك أنه واجب لا يجوز لمسلم أن يتخلص عنه إذا كان قادرا عليه.

ونقد الكتب والمؤلفات لا شك أنه من هذا الباب، وبيان الصحيح منها من الباطل لا شك في وجوبه. ويجب على الإنسان أن ينصر ما يعتقد أنه الحق، ودَفْعُ ما يعتقد أنه الباطل، سواءا كان هذا الباطل صادرا من مسلم حسن النية والقصد أو من سيء النية والقصد، وسواءا كان هذا الباطل من عالم أو من مدع للعلم وهو في الحقيقة عارٍ عنه وجاهل به. ويندرج في هذا من ينتسب إلى أهل السنة ومن يتبرأ منهم ويظن أنه من الناجين ومن المهتدين.

لهذا كله، ولغيره، رأيت أنه يتحتم عليَّ أن أقيد بعض الملاحظات على الكتاب الموسوم بِـ " منهج الماتريدية في العقيدة".

ولضيق الـوقت الـذي أملكه أخَّرْتُ ذلك مـراراً وأياما بل وشـــهوراً، آملا أن أحصل على زمـــان كـــافٍ أقيد فيه بتفصيل ما أريد قوله في هذا الباب، وأعتمد في ذلك على الأدلة والنقـول المفصـلة، ليكـون حجة واضـحة بذاته على كل من يقرأه.

ولكن لما طلب بعض الإخــوة مــني أن أكتب ردا ولو مختصرا على هـذا الكتـاب دفعـني هـذا إلى تغيـير العـزم، والاقتصـار على تنبيهـات جليلـة. وإشـارات دقيقـة، لا تخلو من استدلالات لطيفة. فما لا يدرك جله ؛ لا يترك كله.

وأنا في ذلك مــوقن أن الله تعــالى لا يــترك من هو مخلص النية يريد الاهتــــداء إلى الحق الصـــــريح إذا خلص نفسه من الشـــوائب. ولا توفيق إلا من الله تعـــالى، وهو القوي الحكيم.

نبذة عن الكتاب متعلَّق النقد

هـــذا الكتـــاب صـــادر عن عـــدم دراية بحقيقة علم التوحيــد، وتقليد محض وتعصب شــديد، كل هــذا منا الآن ادعاءٌ، دليله ما سيأتي من كلام.

وصاحب الكتـاب د. محمد بن عبد الـرحمن آلخميس، سائرٌ على خُطى صاحبه الآخر المشـتد في تعصـبه وعـدم معرفته بكثـير من الأمـور الـتي يكتب فيها المـدعو بسـفر الحوالي، في كتابه المسمى بمنهج الأشاعرة في العقيدة.

وكلٌّ منهما يشترك مع الآخر في صفات أهمها :

- الجهل الكبـير بعقائد أهل السـنة والجماعـة، وهم أهل الحق (الأشاعرة والماتريدية).

- عـدم القـدرة على الخـوض في العقائد خـوض المجتهـدين، بل كل منهما لم يخـرج لجهله ولضـيق أفق عقله عن رتبة التقليد.

- وهما بعد ذلك يقدسـان كلام ابن تيميـة، ويأخـذان ردودهما وانتقاداتهما على الأشـاعرة والماتريدية من كلامـه، ومعلـوم أن ابن تيمية من أشد أعـداء هـؤلاء، وقد بينا نحن في غير موضع أن ما ينقله ويشـرحه من مـذهب أهل السنة لا يُرْكَنُ إليه، سواءا أكانت باللفظ أو بـالمعنى، وهو من حيث المعـنى لا يكـاد ينقله عن خصـومه كما يريدونه هم، بل يفسره ويوضحه كما يحلو له هو ثم يشرع في التشـنيع عليهم بنـاءاً على نسـبة هـذا المعـنى اليهم. وهذا يستدعي الغاية من العجب.

- وفـوق هـذا، فهما لما سـبق يشـتركان في الجهل الكبـير بمعـنى النصـوص الشـرعية الـتي وقع الخلاف في معناهـا، وبالتـالي فلا أحد منهما عنـده القـدرة على الانصاف، لتلبسه بما يضادُّه.

وتوجد أسباب أخرى غير ما ذكرنا هنا، لم نعرج عليها للاختصار.

منهجنا في النقد

إذا كـانت المسـألة الـتي يعـترض عليها المؤلف المـذكور بينة ولم يكن لاعتراضه وجـه، اكتفينا بـالكلام المختصر الكـافي في دفع شـبهته وبيـان وجه الحق في المسألة.

وإذا نقل نقلا، فـإن سـلمناه له بينا المـراد من الكلام المنقول، وإلا رددناه عليه وبينا النقل الصحيح.

وإذا احتج بــدليل أو نص ناقشــناه فيه وبيَّنَّا ضــعف كلامه وسقم أحوالــه، وأتينا بالوجه الصـحيح للنص، وذكرنا الدليل الصحيح بإشارة أو عبارة.

والتفسيرات الباطلة نردها عليه، ونبين الصحيح.

والتهويلات؛ في حال كون المسـألة مُحتملـةً للخلاف، نقلِّلُ من شأنها، ونهوِّنُ على القارئ الأمر، بإيضاح المقـام الصحيح للمسألة.

إلى غير ذلك مما ستلاحظه.

واعتمادنا الأول بعد ذلك هو في إرجــاع القــارئ إلى المصادر الأصلية لعقائد أهل السـنة والجماعة أهل الحـق، ليتضح له الحال، ويتبين له الحق من الضلال.

وســنذكر كلامه قبل الــرد عليه وذلك إذا كــان الــرد موجها عليه مباشـــرة ولا يشـــترك فيه مع غـــيره ؛ دون تلــبيس، فإنه وسـيلة الجاهل الضـعيف،وإلا اكتفينا بــذكر المعنى متعلِّقِ الرد..

الشروع في نقد ما في هذا الكتاب

أولا : **كلام عن الفطرة**

في صـفحة (5) يقـول : ولو أن النـاس تُرِكـوا دونما مـــؤثرات خارجيـــة، لنشـــأوا كلهم على الإســـلام، إذ هو الفطرة الصحيحة. أهـ.

ثم قـال في صـفحة (6) : فالإنسـان ليس بحاجة إلى قواعد علـــالكلام والى اســـتدلالات الفلاســـفة والنظـــار وغيرهم حتى يتوصل إلى الاقرار بوجـود الله تعـالى، فـإن هـذا لشـيء جبلت عليه النفـوس وفطـرت عليه العقـول. أهـ.

يريد بهذا الكلام أن يكرر ما هو معهود ممن هو مثله من أنه لا حاجة للناس إلى الاستدلال ولا حاجة لهم إلى علم الكلام، ويلجأ هو وأمثاله في بيان عدم الحاجة إلى القول بأن وجود الله تعالى أمر فطري مفطور عليه الإنسان، بل يقولون أن كل العقائد هي مفطورة في الإنسان ولذلك تراهم يستدلون على عقائدهم بالفطرة ؟!

ولذلك تراهم يُرجعون إلى الفطرة جميع عقائدهم، عقائد التشبيه والتجسيم من كون الله تعالى في جهة وأنه يتحرك وأن له حيزا إلى غير ذلك، ويدعون أن كل ذلك معلوم بالفطرة.

ويستدلون عادة بقوله تعالى " فطرة الله التي فطر الناس عليها"، وبقول الرسول عليه الصلاة والسلام " ما من مولود الا يولد على الفطرة، أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه... "، ولا يذكرون تكملة الحديث كما سنذكرها لأنها تنقض عليهم ما يريدون إثباته.

ويوردون الحديث القدسي " وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم."، كما فعل كاتب هذا الكتاب.

ونحن سوف نناقش هذه الجهات باختصار بما يكفي اللبيب والعامي.

فأما معنى الفطرة ؛ فقد قال ابن فارس في المقاييس : فَطَرَ : الفاء والراء أصل صحيح يدل على فتح الشيء وإبرازه.

ثم قال : والفطرة : الخِلقةُ.أهـ

وذكر الراغب الأصفهاني هذا المعنى في المفردات، ثم قال: وفطرت العجين إذا عجنته فخبزته من وقته،

ومنه الفطـــرة، وفطر الله الخلــق، وهو ايجـــاده الشـــيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعلٍ من الأفعال.أهـ

فالفطرة في اللغة معناها : الخِلقةُ على هيئة معينة.

وهـذا المعـنى اللغـوي هو أصل المعـنى المـراد في الحديث والآية، فالله تعالى خلق الناس على هيئة معينـة، وأودع فيهم من القوى ما لو استعملوها اسـتعمالا صـحيحا سليما لأدى بهم هذا الاستعمال إلى الـدين الحق الـذي هو الإسلام. ولهذا قال الاصفهاني : " وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان."أهـ

فهي إذن القوة المودعة - بلا تأثير خَلقيٍّ للعبد - من الله تعالى هبة وتفضلا، يخلق الله عند استعمالها استعمالا صـحيحا نتائجها من العلم بالله تعــالى وبدينه الحق وغــير ذلك.

وقد أوردت نصوصا كافية في هذا المعـنى في بحـثي المختصر في معنى الفطرة [1][1].

1(?[1]) أورد هنا بعض النصوص في ذلك.

ذكــر الإمـام مسـلم في صـحيحه (10/88)المطبـوع على هامش إرشاد الساري،"باب معـنى كـل مولـود يولـد على الفطرة، وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسـلمين"، قوله صلى الله عليه وسـلم مـا من مولـود إلا ويولـد على الفطـرة فـأبواه يهودانـه وينصـرانه ويمجسـانه، كمـا تنتج البهيمـة بهيمـة جمعـاء هـل تحسـون فيهـا من جـدعاء، ثم يقول أبو هريرة واقرؤا أن شئتم "فطـرة اللـه الـتي فطـر الناس عليها لا تبديل لخلق الله..)[30/الروم].

وذكر أحاديث وروايات أخـرى، وفي شـرح الإمـام النـووي قال في معنى الفطرة: "والأصح أن معنـاه أن كـل مولـود يولد متهيئـا للإسـلام، فمن كـان أبـواه أو أحـدهما مسـلما استمر على الإسلام في أحكـام الآخـرة والـدنيا، وإن كـان أبواه كافرين جرى عليه حكمهمـا في أحكـام الـدنيا، وهـذا

وأما الحـديث الـذي ذكـره هـذا المؤلف ويـذكره معه أصــحابه. فلطالما تمــنيت أن يشــير أحــدهم إلى الرواية الكاملة له ويـذكرها، ويفسـره تفسـيرا صـحيحا بملاحظة جميعه لا بملاحظة بعضه كما ذكــره هنــا، ولكن إلى هــذا الزمان لم أجد أحـدا منهم يـورده كـاملا، وما ذاك الا لأنهم يعلمون أن آخر الحديث يرد على ما يريـدون هم اثباته بما يذكرونه منه ويقتصرون عليه.

وقد ذكرنا نحن هذا الحديث كـاملا في بحث الفطـرة المذكور، وأشرنا إلى أقوال العلماء فيه، ونكتفي هنا بـذكر ما تقـــوم به الحجـــة، ففي نهاية الحـــديث كما في بعض الروايــات الصـحيحة الــتي رواها الامــام مســلم وغــيره كالبيهقي، وذكرها الامام السـيوطي في الجـامع الصـغير.. يقـول الرسـول الكـريم بعد قوله " يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه"، "فإن كانا مسلمين فمسلم". هذه الزيادة التي لم أرَ أحدا من اصحاب هذا المؤلف المشـار اليه يـذكرها، وهي تنص صـــــراحة على أن الطفل كما يتــــأثر بوالديه ويلحق بهم في الحكم أن كانا نصـــرانيين أو يهـــوديين أو مجوســيين، فكـذلك يتـأثر بهما ويلحق بهما في الحكم أن كانا مســلمين، وهــذا يــدل على أن الطفل في الأصل لا يقــال له مســلم أو كــافر، ولكن الحكم عليه بــالكفر أو الإيمان أي الإسـلام، إنما هو حكم تبعي إلحـاقيٌّ لا أصـلي، أي أن حاله يلحق بحـال والديه أو الـدار الـتي وجد فيها أو غير ذلك، مما هو مذكور في كتب الفقه(2[2]).

معنى يهودانه وينصرانه ويمجسانه، أي يحكم له بحكمهمــا في الدنيا، فإن بلغ استمر عليـه حكم الكفـر ودينهمـا فـإن كانت سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره."اهـ

2(?[2]) نذكر هنا بعض ما ذكرناه في ذلك البحث.

روى الإمام مسلم في "باب معـنى كـل مولـود يولـد على الفطرة" عن أبي هريرة أن رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال: كـل مولـود يولـد على الفطـرة، وأبـواه بعـدُ

وعندي أن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى استدلال فإن ما يدَّعونَ أنه مفطور في الناس من العلم بوجود الله تعالى وصفاته، لا يشعر به أحد منهم ولا من غيرهم في أنفسهم عندما كانوا أطفالا، وكذلك لا يشعرون به في الأطفال الذين نراهم ويرونهم، وإنما يثبت هذه العلوم من يثبتها ويتوهم وجودها في الفطرة عندما يخلق الإنسان ويخرج من بطن أمه لفرط تعصبه وضيق عقله. وأما ما قد يرونه من بعض الناس عندما يقولون بما يقول به هؤلاء من عقائد وأقاويل، فإنما هو أثرٌ لتقليده غيرَه، فلا أحد من الصغار ولا الكبار من توجد معه هذه العقائد بل ولا غيرها من العلوم عندما يخرج من بطن أمه.

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها".

وفي كتاب الاعتقاد للبيهقي ص107: قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في رواية أبي عبد الرحمن البغدادي عند قول النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة: هي الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، فجعلهم رسول الله ما لم يفصحوا بالقول فيختاروا أحد القولين الإيمان أو الكفر، لا حكم لهم في أنفسهم إنما الحكم لهم بآبائهم، فمن كان آباؤهم يوم يولدون فهم بحالهم إما مؤمن فعلى إيمانه وإما كافر فعلى كفره. قال الشيخ [البيهقي] رحمه الله:

الذي يؤكد هذا ما روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث:فإن كانا مسليمن فمسلم.اهـ

لأن الإنسان يخرج إلى هذا العـالم عاريا عن أي علم، وقـــابلا لأن يتعلم كما هو مـــذكور في نص الآية الـــتي سنذكرها.

وأيضا فهذه الأمـور المفطـورة كما يـدعي هـؤلاء في النـــاس منذ خلقهم ! هي لا شك علـــومٌ توجد معهم منذ الخلقة والولادة على ما يدعيه هؤلاء !

وهذا باطل، كيف يكون صحيحا والله تعالى يقول في كتابه العظيم "والله أخـــرجكم من بطـــون أمهـــاتكم لا تعلمـون شـيئا". فـأنت تـرى الآية قد نفت وجـود أي علم، والنفي المسلط على النكرة يفيد العمـوم كما تعلم، فهـذا يستلزم عدم وجود أي علم في الإنسان حين ولادته. وهذا نص صريح على عدم وجود أي نـوع من انـواع العلـوم في فطـرة الإنسـان، بل كل ما فيه من هـذا الجـانب إنما هي قوى قادرة على الوصول إلى العلوم والادراكات.

وقد نـــاظَرْتُ احـــدَهم في هـــذا بعد أن ادعى نفس الادعاء المـذكور فقلت له : هل هـذه الامـور الـتي تـدعيها هي مخلوقة مع الإنسان منذ الولادة ؟

فقال : نعم.

قلت : هل هي علـوم معينة بما تدعيه من وجـود الله تعالى وغير ذلك؟

قال : نعم.

قلت، فأنت تقول بأن الإنسـان يُخلق معه علـومٌ وهو خارج من بطن أمه ؟!

قال : نعم !

قلت : فهـــذه مخالفة صـــــريحة لنص الآية " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ".

فسكت، وبُـهر، واعترف بالغلط.

فقلت له : فالفطرة المذكورة لا يمكن أن تكــون من جنس العلوم بنص الآية، فلزم أن تكون من قبيل الشروط أو الاسباب للعلوم، والقابلية.

وهـــذا هو ما نص عليه المحققـــون من العلمـــاء المتقدمين والمتأخرين.

وهذه الفطرة من شـأنها أن تكـون مائلة إلى الـدين، بالقوة، لا بالفعل[3]. وهـذا هو معـنى قوله تعـالى " حنيفا مسلما "، فالأصل أن يكـون الوصف مقيـدا، لا كاشـفا لأن

---

[3] في بحث الفطرة ذكرت قول الإمام المناوي في فيض القدير(5/33): "(كل مولود) من بني آدم (يولــد على الفطرة)اللام للعهد، والمعهود فطرة الله التي فطــر النـاس عليهـا، أي الخلقـة الـتي خلـق النـاس عليهـا، **من الاسـتعداد لقبـول الـدين والتهيـؤ للتجلي بـالحق وقبول الاسـتعداد والتـأبي عن الباطـل والتميـيز بين الخطأ والصواب** (حتى يعرب عنـه لسـانه) فحينئـذ أن ترك بحالـه وخلي وطبعـه ولم يتعـرض لـه من الخـارج مَن يصده عن النظر الصـحيح من فسـاد التربيـة **وتقليد الأبــوين والإلــف بالمحسوســات والانهمــاك في الشــهوات ونحــو ذلــك، لينظــر فيمــا نصــب من الدلالة الجلية على التوحيد وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك نظرا صـحيحا يوصـله إلى الحق وإلى الرشد**، عرف الصواب ولـزم مـا طبـع عليه في الأصل ولم يختر إلا الملة الحنيفية، وإن لم يُـترَك بحاله بأن كان أبواه نحو يهوديين أو نصرانيين (فأبواه) هما اللذان (يهودانه) أي يصـيرانه يهوديـا بـأن يـدخلاه في دين اليهوديـة المحـرف المبـدل بتفويتهمـا لـه(أو ينصـرانه) أي يصيرانه نصرانيا (أو يمجسانه).اهـ

ثم قال: **والحاصل أن الإنسان مفطور على التهيؤ للإسلام بالقوة، لكن لا بُدَّ من تعلمه بالفعل**.اهـ

هذا هو المستلزم لزيادة الفائدة، لا مجـرد تأكيـدها، خاصة في حال عـدم وجـود منكـر، فالكل يعلم أن إبـراهيم كـان حنيفا، فالزيادة بالوف هنا يفيد التقييد، لا مجـرد الكشـف، والتقييد نـــــوع من التخصـــــيص، فالحنيفية أعم إذن من الإسلام، والأعم لا يسـاوي الأخص كما هو واضـح، فالنـاتج إذن أن الحنيفية ليست هـتي عين الإسـلام، والحنيفية هي الفطـرة، فلو كـانت الحنيفية هي نفس الإسـلام لما جـاز وصفها به. ولكنها تستلزمه، فوصفت بـه،والإسـلام غيرهـا، ولكنه لازم عنها، وغير متعارض معها.

وظاهر كلام المؤلف المذكور، أن الفطرة هي علـــوم توجد مع الإنسان، وظاهرٌ أن هذا باطل.

فـإن قصد أن الفطـرة هي القابلية والتأهل لالـتزام الـــدين والأخذ بـــه، فلا نخالفه في ذلـــك، وليس ذلك ما يقصـــده. ولكن نخالفه أنها هي فقط كافية مطلقا للدلالة إلى الـدين، بل نقـول إنه يلزمها قواعد عقلية أو وجدانية قلبية، وهي تكـون منبعثة عنها بـالارادة الإنسـانية الجازمة المتوجهة نحو اقتنـاص العلـوم والمعـارف، وتكـون مقوية حارسة للفطرة.

وبهـــذا يثبت أن البحث والنظر لازم لا يمكن أن ينفك الإنسان عنه، وهو المقصود بكلام الأعرابي الذي سئل عن كيفية معرفته لله تعـالى، فاسـتدل لهم بـالكون وعظمته وظهور الحكمة فيـه. وقد ذكر المؤلف هـذه القصـة، وهي دليل عليه لا له.

وبهذا نكون قد أشرنا إلى نقاطٍ كافية ترشد الطـالب إلى الحق في هذه المسألة.

فمعنى أن الإنسان مائل إلى الإسلام بالقوة لا بالفعل أنـه إذا اسـتعمل قـواه الـتي أودعهـا اللـه تعـالى فيـه على الطريقـة الصـحيحة، فإنهـا ستوصـله حتمـا إلى الإيمـان بالإسلام أو على الأقل إلى معرفة أن الإسلام هو الحق.

ثانياً :**إشاعات تراجع الأشاعرة**

وأما ما ذكـــره بعد ذلك من كلام حـــول تراجع بعض العلماء عن علم الكلام، وشكهم وترددهم في حياتهم !!

فهذا كلام باطل وقد أشبعنا الكلام عليه في أكـثر من موضـع، وقد أفـردت لكل واحد من العلمـاء الـذين نسب اليهم هـذا الأمر مقـالا ورسـالة توضح حـالهم وتهـافت ما نسب اليهم، ومقاصد من نسب اليهم ذلك. فلتراجع.

ثالثاً : **الموقف من علم الكلام**

لما لم تكن المعـارف والعلـوم مخلوقة في الإنسـان منذ الولادة، وكانت العلوم الدينية هي أكـثر العلـوم فائـدة للإنسان، ولا يتم صلاح الإنسـان الا بهـا، فقد لـزم ضـرورة أن يوجد علم يبني الأدلة القاطعة على هذه العلـوم، ويـرد الشـبهات والتشـكيكات الـتي يوردها الملحـدون ومنكـرو الاديـــان والمبتدعة المنحرفـــون عن النهج الصـــحيح، ولا يسـتطيع أي إنسـان أن يـدعي أن الفطـرة تكفي في كل ذلك،فإن هذا يدل بكلامه على عمق جهله، وهذا يكفي في سقوط الكلام معه.

ولو كان الأمر كذلك، لما تكاثرت الآيـات في القــرآن الكـريم الـتي تحض النـاس على الالتفـات إلى دقيق صـنع الله تعــــالى والى التفكر في الســــموات والأرض، والى الإشـارات البليغة في مناقشة الكفـار واليهـود والنصـارى وغيرهم.

والعلم الذي يؤدي هذه الوظيفة في الدين الإسلامي، وعند المســـلمين هو العلم المســـمى بعلم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين أو غير ذلك من الأسماء.

ولا يسـتطيع أحد أن ينكر إنكـارا صـحيحا وجه الحاجة إلى مثل هذا العلم الجليل.

وقد يتم النقاش والجـدال حـول أحد الأدلة أو بعضـها المستخدمة في هذا العلم والواردة في بعض الكتب فيــه، أو بعض الآراء التي قـال بها بعض العلمـاء في هـذا العلم. ولكن أن يتم القدح في أصل الحاجة إلى هـذا العلم فهـذا هو الأمر الغريب الذي لا يقول به الا كل جاهل.

وأن نخالف بعض العلماء في بعض ما قـالوا، فهـذا لا شيء فيه، وإنما هو من باب الاجتهاد، لأن الإنســان يخطئ ويصـيب، ولكن لا شك في وجـود قواعد راسـخة يشـترك فيها المسلمون جميعا لا يمكن لأحد أن يخدشها.

ولا أشك أن صاحبنا هنا، الذي يقدح في علم الكلام لا يدري من مباحثه شـيئا، ولا يعـرف الا كلمـات التقطها من هنا ومن هناك. والجاهل بالشـيء هو أول من يعاديـه، لأنه يتصور كل المفاسد فيه !

ويجب أن يكون معلوما أنه لم يوجب أحد من العلماء المعتـبرين على عـوام النـاس أن يعرفـوا الله تعـالى على طريقة المتكلمين ونصوصـهم صـريحة منتشـرة في هـذا الأمر في كتبهم، بل الـــواجب عليهم أي على العـــوام هو معرفة الله تعالى من غـير تحديـدٍ لوجه الـدليل شـرط أن يكون صحيحا ولو إجماليـاً،كقـول الأعـرابي " البعـرة تـدل على البعـير والسـير يـدل على أثر المسـير، أسَـماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير ".

وقد نص العلماء في كتبهم علىأن مثل هذا الاستدلال الاجمالي كاف في هذا الباب، وكذا في باقي المسائل في علم التوحيد.

رابعاً :**إشارة إلى خدمات المتكلمين للدين**

هناك عبارات يكثر بعض الناس من تردادها، وهي أن المتكلمين اتبعـوا الفلاسـفة، وأنهم قلـدوهم في العلـوم. ولعمـــري أن هـــذه تهمة عظيمة تـــدل على جهل عظيم بالفلسفة وعلى الكلام !

فـإن أول النـاس الـذين بينـوا عـوار الفاسد من المـذاهب الفلسـفية هم أصـحاب علم الكلام، وإن الـذين وقفـوا في وجه الملحـدين من فلاسـفة الشـرق والغـرب وكل من ادعى الحكمة وخالف أمـرا من أمـور الـدين، هم المتكلمون.

وكتبهم دليل على ذلك.

وقد شـهد القاصي والـداني أن علم الفلسـفة قد انـدحرت جيوشه في الشـرق بـأثرٍ من هجـوم المتكلمين عليهم.

وأحل المتكلمـون نظريـات خاصة بهم وأدلة سـديدة استندوا في اكثرها إلى ما فهموه من النصوص الشـرعية، خصوصا في مجال الالهيات.

وأما المنطق وعلم المقـولات ومنـاهج الاسـتدلال وطـرق التفكـير الصـحيح فلا تسل عن مقـدار وجلالة الخدمات التي قدمها المتكلمون، حـتى صـارت نظريـاتهم وآراؤهم هي الأساس الذي اسـتند اليه الغـربين في إقامة دعائم العلوم التجريبية الحديثة، وهـذا لا ينكـره أحد عنـده شيء من العلم.

وأما النظـرة في حقيقة الوجـود، فبالله أسـألُ هـذا المـدعي أن يـدلنا على شـيء سـاير فيه المتكلمـون أهل الفلسفة في ذلك ؟ الا أن يكون أمرا صحيحا لا يجوز عقلا ولا شرعا إنكاره، وإلا فإن الأصول الباطلة التي بـنى عليها الفلاسفة أو لنقل بعضُهم أقوالَهم، قد ردها المتكلمون من الملة الحنيفية.

خامساً : **حول التأويل والظاهر**

عنـدما يقـول أهل السـنة وأهل الحق وهم الأشـاعرة والماتريدية، أن بعض الناس مجسـمة، فهـذا لا يعـني على

الاطلاق أن النصـوص الـتي اعتمد عليها هـؤلاء ظـانِّين أنها تؤيد ما يقولون، هي الموحية لهم بأفكار التجسيم.

ولذلك فإنهم عندما يـردون عليهم ويفنـدون أقـوالهم ويبطلون آراءهم، فهم لا يردون على القـرآن والسـنة كما يدعي هؤلاء المجسمة.

ولكنهم إنما يبطلــون ما فهمه هــؤلاء المجســمة من الكتاب والسنة ويبينون أن هذه الأفهام ليست مأخوذة من الكتاب والسنة، وأن ما يـدعي هـؤلاء أنه ظـاهر النصـوص الشرعية، فإنما هو ما ظهر لعقولهم أي لنفوسهم. ونقـول أن هذا المعـنى الباطل قد ظهر لنفوسـهم ولم يظهر لنـا، فلا بد أن يكونـوا قد اتبعـوا أسـاليب في الفهم تخـالف ما اتبعناه، وإلا لو كان الظهور لمجرد الفطرة لكانت فطرتهم تستلزم التسـيم وفطرتنا تسـتلزم التنزيه لنفس الفطـرة، ومعلوم بطلان ذلك، إذن الوسائل الــتي اتبعوها في الفهم هي التي أدت بهم إلى فهم واستظهار هذا المعنى المؤدي إلى اعتبار الله تعالى جسما ومحدودا، ونسبوا فهمهم هـذا إلى النصوص الشرعية، وهذا باطـل، فلو كـانت النصـوص الشرعية تستلزم لذاتها هذا المعنى، لفهمه كل واحد ممن نظر فيها، وليس الأمر كذلك. ولذلك نص العلمــاء على أن معاني الجسمية ظهرت لأوهـام المجســمة، فنسـبوها إلى النصوص الشرعية، فتراهم بعد ذلك يتهمون كل من ينفي الجســمية والحد عن الله تعــالى بمخالفة النصــوص، وهو إنما يخــالف ما نســبوه هم إلى النصــوص الشــرعية، ولا يسلم لهم بذلك. فنحن نُبطل أن تكون نفوسـهم قد اتبعت الطرق السليمة في التفكـير وفي فهم النصـوص. وإلا لما امكن لهم أن يصــــلوا إلى مثل هــــذه الآراء الباطلة من القــول بالحد والجســمية والأعضــاء والحركة والجلــوس وحلول الحـوادث في الـذات الإلهيـة، وغـير ذلك من الآراء الباطلــــة. وذلك لأن الإنســــان العاقل لا يصل إلى الآراء الباطلة.

وأهل الحق في نفس الـوقت يقولـون أن من يـرد ما ثبت بالنص أو بالقطع أنه من الشرع فهو كـافر. ولـذلك لا يجـــوز أن ينسب اليهم أحد أنهم يخـــالفون النصـــوص أو يردون الأحاديث بعد أن علموا أنها ثابتة.

وأهل الحق لا ينســبون إلى احد من المخـــالفين من أهل الإسـلام أنه يـرد ما علم كونه من الـدين بالضـرورة، أقصد أهل الإسـلام المعتـبرين. ولـذلك فلهم في تكفـير الفرق أقوال، أرجحها عند الجمهور منهم عـدم التكفـير إلا بما وضـحوه من مقـاييس ذكروها في كتب الفقه وأصـول الدين.

ونحن نـــرى في نفس الـــوقت أن المجســـمة من المنتسبين إلى الإسـلام يـدعون أن الأشـاعرة والماتريدية وهم أهل السنة علىالحقيقة، يخالفون الثابت من النصوص بالعقـل، ويـردون النصـوص وسـائر النقـول اذا خـالفت ما يقولـون به هم، فيصـورونهم كالملحـدة والكفـار الـذين لا يعتدون بالنصوص الدينية، والأمر بخلاف هذا قطعا. وهؤلاء يكذبون على أهل الحق كعادتهم في كثير من كتبهم.

وسوف تتضح لك بعض الأمثلة على ما نقول هنا فيما يلي إن شاء الله تعالى.

سادساً :**أهل السنة والمجسمة**

يقول هذا المؤلف في صـفحة 9 :"وقد هـالني ادعـاء بعضهم أن أهل السنة والجماعة هم الأشعرية والماتريدية، ورموا السلف بالتجسيم والتشبيه".

كذا قـال، وكونه قد اسـتغرب لمـاّ سـمع هـذا الكلام، يـدل اسـتغرابه هـذا على مـدى الجهل الـذي هو واقع فيه بحيث يدفعه إلى الاسـتغراب من أمر أصـبح مشـورا في كتب عامة اهل العلم. وهــذا ينبئك على مقــدار وضــحالة المعلومات التي يملكها هذا المستغرب في هذا الموضـوع الذي يتصدى للكتابة فيه.

ولنا على كلامه بعد ذلك ملاحظات.

أما أن البعض ؟! هم من ادعى أن الأشــــــــاعرة والماتريدية هم أهل السـنة فهـذا باطـل، فمن ادعى ذلك ليس البعض فقط، بل هم جمـاهير أهل السـنة، وجمـاهير العلماء من المسلمين على الاطلاق.

ونحن هنا لا نريد أن نعـدد أسـماء كبـار العلمـاء من الأشاعرة أو ممن يوافقونهم في العقائـد، فـإن هـذا الأمر أشهر من أن يذكر هنا، بل أن أغلب الفحول والعلمـاء من أهل الإسلام لا يخـالفون الأشـاعرة الا في بعض المسـائل التي ينتمي معظمها إلى فروع الدين لا إلى أصـوله. وهـذا يعلمه من عنـده أدنى إنصـاف ويقـول بـه. واما عند من اصبح الدين كله عنده أصولا، حـتى سـحب هـذه الأصـولية على ما قال به هو من الأقوال التافهة فإنه لا يـدري ما هو المقصود من الأصول والفروع.

ويكفي لمعرفة ما قلنـاه الرجـوع إلى كتب طبقـات العلمـاء وتـراجمهم من المتقـدمين والمتـأخرين كمثل ما قاله ابن السـبكي وابن عسـاكر وابن حجر والسـخاوي والقاضي عيـاض وطـاش كـبرى زاده ونجم الـدين الغـزي وغيرهم كثير.

أما ما ادعـــاه من أن أهل الحق رمـــوا الســـلف بالتجســيم، فقوله هــذا تلــبيس، فــإن كلمة الســلف إذا أطلقت أريد بها أهل القرون الثلاثة من الصحابة والتـابعين وتابعيهم، فهل يوجد أحد من الأشـاعرة أو الماتريدية رمى هؤلاء بالتجسيم ؟؟!

إذا لم يوجد وهو لا يوجد ولن يوجد، فكيف أجـاز هـذا الرجل لنفسه إطلاق مثل هـــذا القـــول، إلا لأنه متعصب مشتد في غلوِّهِ !

وإذا قصد أنهم قــالوا أن طائفة ممن وجد في زمــان السـلف الصـالح هم مجسـمة، فهـذا صـحيح، وهو لا يقصد

هذا المعنى. فقد وجد فيهم الخوارج ومن قال بنبوة الامام على ابن أبي طالب كرم الله تعـالى وجهه، بل منهم من قـال بألوهيته، رضي الله عنه،ووجد المعتزلة في زمان السلف، ولا يسـتطيع أن ينكر هــذا منكــر، كما وجد الجهمية والجعدية وغــيرهم ممن عرفنا عنهم الضلال في زمان السلف الصالح.

والحق أن الأشـاعرة والماتريدية إنما رمـوا بعض من ادعى التمسك بظواهر النصوص من القرآن والسـنة، وهو على ما هو عليه من شـــدة الجهل والمكـــابرة مع عـــدم الانصاف، رمـوا هـذه الطائفة بالتجسـيم، وكلامهم صـحيح في نسبة هؤلاء إلى التجسيم.

ويحــاول المجســمة في كل زمــان ومكــان التمسح بنصـوص الكتـاب والسـنة وإلصـاق المعـاني الباطلة بهما إلصـاقاً بلا دليـل، وإظهـار التقـوى والـورع واللين وحسن الأخلاق، وهم عارون عن ذلك كله. وأشـهر دليل على ذلك ما نــراه ممن ينتسب إلى السـلفية في زماننا هــذا، وهم أتباع وفروع الكرامية والمجسمة ممن انتسبوا إلى الإمـام أحمد وهو منهم براء.

والحق أن الأشـاعرة والماتريدية هم المـدافعون عن عقيدة أهل السنة والجماعة على مر التاريخ والأزمان إلى هــذا الزمــان، ولا يجهل هــذا الا من لا اعتبــار له أو حاقد متعصب مُغَرَّرٌ به.

وقد قسم مؤلف هـذا الكتـاب ما ذكـره إلى مبـاحث ومسائل، وسنتابعه وننقده فيه مسألةً مسألةً.

المبحث الأول

أ- مصدر التلقي عند الماتريدية.

قال مؤلف الكتاب أن مصدر التلقي الأول في معظم ابــواب التوحيد هو العقل دون النقــل، وعلل ذلك بقوله :

لأن الأدلة العقلية عنـــدهم قطعية اما الســـمعية فإنها هي ظواهر ظنية. أهـ

كذا وضح مذهب القوم. وهـذا العـرض منه لمـذهبهم يـــدل علىمعرفته الناقصة الملفقة لما يقولـــون، هـــذا إذا أحسنا فيه الظن.

ولما كثر الكلام في هـذه المسـألة أي مسـألة العقل والنقل وموقف الأشــــــــاعرة والماتريدية - أهل الحق - منهمـــا، وصـــار الكلام فيها مكـــررا فإننا سنوضـــحه هنا باختصار كاف منبهين على أصول المعاني، لا سـيما أننا قد فصـلنا فيها في أكـثر من موضع في ما كتبنـاه من الـردود والكتب في العقائد وأصول الفقه.

وأما هــذا المؤلف فإنه اتخذ ســبيل التلــبيس كعــادة أصحابه، فأطلق القول عليهم بأنهم يقولـون أن العقل هو مصـــدر التلقي في معظم العقائـــد، وظـــاهر كلامه أنهم يأخذون العقائد من حيث هي دين وشرع وملة من العقل، ويوجبـون ذلك بحيث يـترتب العقـاب والثـواب على ذلـك، وهذا القول باطل كما هو معلـوم من نصوصـهم في كتبهم المشهورة.

فالــــذي يقولـــــون به إنما هو أن العقل آلة لمعرفة الوجـــــوب الثــــابت لله تعــــالى، فهو كاشف لا مثبت، والماتريدية خصصـــوا الكلام في أن العقل يـــدرك ثبـــوت وجوب معرفة الله تعالى خاصة. ولهذا قال الامام البياضي في إشارات المرام صفحة 75 :

"العقل آلة لمعرفة الوجـــوب الثـــابت لله تعـــالى ولمعرفة الحسن اللازم لا موجب كما قالت المعتزلة.

ثم قال :

وهو معتبر وآلة لمعرفة ذلك بدون السمع. أهـ

فأين هـذا الكلام من كلام هـذا الكـاتب الـذي لايـدري في أي موضوع يتكلم وفي أي بحر يغوص.

وهذا الكـاتب يريد أن ينسب إلى الأحنـاف الماتريدية أنهم يقولـــون أن العقل هو الـــذي يملي علينا الـــدين لا الشرع، وهـذا القـول ليس ما يـذهبون إليـه، فانتبه لـذلك، وهو يقصد بـــذلك أن يقـــدمهم إلى القـــارئ على أنهم يقدمون العقل على النقل، ويهملون النقل.

ثم انظر إلى سذاجته في التفكير وفي العــرض وإلى تلبيسه عليهم وهو يقــول : إن الســبب في القــول الــذي يقولون به - على زعمه - هو أنهم يقولون أن العقل دلائله قطعية أما السمع فدلائله ظنية.

ولا أرى هذا إلا سخافة في تأصيل المسائل وفي بيان حقائق المذاهب. فلا علاقة أصلا للمسـألة الأولى بالثانيــة، بل هي مسـألة أخـرى، وذلك أن الأخذ بما هو أخذ يتضـمن التدين والإذعان والخضوع، وهذا الأمر لا يتوقف فقط على كون المأخوذ قطعيا، بل يمكن أن ينبـني أيضا على مجــرد كونه ظنيا، والشرط في الأخذ بهذا المعنى هو كون مصدر الأخذ هو الله تعالى أو الرسـول عليه السـلام، ولا يهم بعد ذلك كون المأخوذ قطعيا أو ظنيا، كغالب الأمـور التعبديــة. ولكن العقائد اشـــترط فيها كونها قطعية لما لها من محل كبير في الدين، ولكونها أصولا يقوم الـدين عليهـا. وزيـادة شرط القطع في العقائـد، لا يسـتلزم عـدم الأخذ من الله تعالى. لأن القطع يتحقق أيضا في المنقـول من الشـرائع، ولكن اشتراط كون المـأخوذ منه هو الله أو الرسـول لكي يعتبر تدينا، هو إبطال لاعتبار مجرد العقل في التـدين، كما هو معلــوم في أصــول الــدين، وهــذا هو المعــبر عنه عند علمـاء أهل السـنة بأنه لا حكم إلا لله تعـالى، وأنه لا حكم للعقل، يقصدون بالحكم الحكم الشرعي المأخوذ للتدين.

ثم هل يجهل هذا الكاتب أن المحققين من الأشاعرة والماتريدية قالوا بأن النصوص والنقـول الشـرعية بعضـها

يفيد القطع وبعضــها يفيد الظن، وذلك حسب قــوة النقل المتفاوت من المتــواتر إلى الآحـاد. لا أظن أن أحـدا يجهل هـذا الأمــر، لأنه من الوضــوح بمنزلة الشــمس، ولكن هو الزيغ عن طريق الرشاد والحــق، وهو التلــبيس على عامة الناس الذي يوجه كتابه هذا اليهم.

وقد قــرر أهل السـنة من الأشـاعرة والماتريدية قبل أن يأتي مشايخ هـذا الكـاتب المفتـون، أن النقل الصـحيح الثابت المعنى لا يمكن أن يتعارض مع البراهين العقلية.

ثم إنه لم يقل أحد منهم أن الأدلة العقلية كلها قطعية، ولذلك اهتموا بترتيب مراتب الحجج وبيـان القـوي منها والضــعيف ســواء في كتب المنطق أو في كتب علم أصول الفقه وعلم التوحيد.

وأما القاعـدة الـتي يكـثر هـؤلاء المجسـمة في هـذا العصر من الكلام عليها وي ما يُطلق عليه اسم (القــانون الكلي) فقد تكلمت عليه في غير موضع ووضـحت معنـاه بحيث لا يخفى على أحد(4[4]).

4(?[4]) أنقل هنا بعض ما قلته في ردي على كتاب "العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون" ومؤلفـه هـو (علي الحلبي) أحد الدعاة إلى ما يسمونه بمـذهب السـلف وهـو في الحقيقــة خليــط من مــذهب المجســمة والظاهريــة ممتزجا هذا كله بمصالح دنيوية.

لمـا خلـق اللــه تعـالى الإنسـان، وهب لـه وسـائل للعلم، وجعلـه مكلفـا بنـاءا على وجـود هـذه الوسـائل كمـا ذكـر بالنص البين الذي لا يمكن تأويله(والله أخرجكم من بطون أمهـاتكم لا تعلمــون شـيئا وجعــل لكم الســمع والأبصــار والأفئدة لعلكم تشكرون)، فانظر رحمك اللـه كيـف جعـل الشكر مترتبا على وجود وسائل المعرفة المــذكورة، وهي السمع والأ[صار والأفئدة. وقد أمرَنا الله تعـالى أن لا نتبـع شيئا إلا إذا وصَلنا عن طريـق من هـذه الطـرق وذلـك في قولـه تعـالى(ولا تقـف مـا ليس لـك بـه علم، إن السـمع

وهذا الكاتب الساذج قد اعـترض على القـانون الـذي ذكره أهل السـنة، ثم أعـاده بمعنـاه في آخر كلامـه، تماما كما فعل زميله الآخر سـفر الحـوالي في كتابه المتهـافت الذي أشرنا اليه في أول الكلام.

والبصر والفؤاد كـل أولئـك كـان عنـه مسـئولا)، وفي هـذا مدح لكل وسيلة من هذه الوسائل من حيث كونهـا طريقـا إلى العلم. وقد ذم الله تعالى الكفار لأنهم يتبعـون مطلـق الظن والعائد إلى الشهوة النفسية، وشـنع عليهم بـأنهم لا يملكونعلمـا. وفي هـذا لفت للنظـر إلى وجـوب اسـتخدام هذه الوسائل، لأنها طرق العلم.

فالله تعالى هو الذي نصب هذه الوسـائل طرقـا للمعرفـة والعلـوم، وقـد مـدح اللـه أقوامـا لأنهم لا يعقلـون، وهـذا إشارة إلى مدح مطلق العقل، وأنه لا يوجـد شـيء اسـمه عقل مـذموم إلا على سـبيل المجـاز، إذ كيـف يكـون عقلا ومذموما، فهذا يناظر أن يقـال:علم غلـط، وهـو جمـع بين الضدين أو حتى بين النقيضين.

فالعقل ممدوح مطلقا، لأن الله تعالى مدحه مطلقا ومدح المتصـف بالعقـل، ولم يـرد في نصٍّ ذمٌّ للعقـل، ولا يجـوز شرعا ذمه.

ولا خلاف بين العلماء أن العقل إن لم يكن هو نفسه هـذه الوسائل الثلاثة أو واحدا منها، فلا بد أن يكون لا زما عنها، وما كان لازما للحق فهو حق، ويستحيل وجـود لازم للحـق وهو باطل.

ولما أرشدنا الله تعالى إلى وسائل المعرفـة عطفهـا على بعض بالواو التي تفيد مطلق الجمع وما هذا إلا إشارة إلى أنه لا تعارض بين أي واحد من هذه الثلاثة، ولا يجوز وجـود تعارض، ومع عدم وجود التعارض يسـتحيل وجـود تـرجيح،

ب- حكم تأويل النقل

أما مســألة التأويــل، فهي أظهر من أن تحتــاج إلى توضــيح، ونحن لا نتكلم مع هــذا المــدعي فيها هنا بعد أن تكلم عليها فحــول العلمــاء من المتقــدمين والمتــأخرين، وأجازوا التأويل بشروطه المذكورة في كتبهم.

لأنه فرع التعـارض. وعلى هـذا يكـون من رجح أمـرا على أمر منها مخالفا لنص القرآن.

وهذا الكلام لا يجوز أن يخالف فيه إلا من لا يحصِّلُ معانيه.

فهذه مقدمة مهمة جدا في بيان الأصل الـذي تقـوم عليـه هذه المسألة.

ومعلوم لدى كل إنسان عاقل أنه يحكم على بعض الأمـور أحيانا على سبيل الجزم وأحيانـا على سـبيل الظن، فتـبين التفرقة الضرورية بين منزلة الظن والقطع.

ومعلوم لدى كل عاقل أيضا أن للألفاظ مراتب في دلالتها وهـذا الأمـر اتفـق عليـه علمـاء الـدين، فبعض الألفـاظ لا تحتمل إلا معنى واحدا في دلالتها، وبعضها تحتمل أكثر من معنى مع رجحان في واحد أو بدونه، وهذا أيضا معلوم، فلا يشترط في اللفظ أن يدل على معنى واحد فقط.

وقــد مضــى بيــان أن العلم يمكن أن يــأتي عن طريــق الســمع، ويمكن أن يــأتي عن طريــق الفــؤاد، ولا يمكن تعارض العلوم مهما كانت وسائلها.

وحيثما وقع تعارض فلا بد من وجـود غلـط في نسـبة أحـد المعنيين أو كليهما إلى وسائل المعرفة.

وحيثمـا وقـع التعـارض فيجب تـرجيح العلم والقطـع على غـيره، بغض النظـر عن مصـدر أي منهمـا. وأمـا إن كـان المتعارضان ظنيين فينظر في القرائن والغلبة.

والتحقيق في الدافع الذي يـدفع هـذا الكـاتب وأمثاله إلى الكلام في هذه المسألة، هو كما يلي:

ان هؤلاء عبارة عن بقايا فرق المجسـمة والكراميـة، وإحيــاء لهم في هــذا الزمــان، وهم لا يهتمــون من علم التوحيد بـأكثر من نسـبة الحد والجهة والمكـان والأعضـاء وغــير ذلك إلى الله تعــالى، ولما كــانوا لا يملكــون من

والمرتبة التي يدون عليها الكلام في القـانون الكلي الـذي ذكره العلماء، هي تعارض القطعيات مع الظنيـات مطلقـا، مـا هـو الـذي يـرجح عنـدذاك، الإجمـاع قـائم على تقـديم القطع مهما كان مصدره.

هذه هي المسألة بوضوح واختصار، وهذا هو المعنى الـذي يذكره الإمـام الـرازي في القـانون المعلـوم، فهـو يفـرض فرضا عقليا تعارض قواطع عقلية مع ظواهر نقلية شرعية أي محتملة، فالواجب،حتما ترجيح القطعي، لا لكونه عقليا بل لكونـه قطعيـا، وحينئـذ للنقلي احتمـالان إمـا أن يكـون باطلا من حيث السند، أو يكون المعنى المتوهم أنه ظـاهر منه، ليس كذلك، بل يكون المعنى المـراد بـه معـنى آخـر بدلالة قرائن أخرى، غفل عنهـا النـاظر لأول وهلـة، وهـذه الدلائل بها يظهر معنى آخر.

هذا هـو القـانون الكلي الـذي أقـام المجسـمة وأتبـاعهم الدنيا وأقعدوها أو لم يقعدوها. وهذا الفعـل منهم يـبين كم هي نفوسهم ضحلة، ولا يعيشون إلا في ضباب.

وقد تكلم الإمام الـرازي في كتبـه على احتمـال واحـد من الاحتمالا العديدة فقال مثلا في كتاب أساس التقـديس ص 172:"الفصل الثاني والثلاثون في أن البراهين العقلية إذا صـارت معارضـة بـالظواهر النقليـة فكيـف يكـون الحـال فيها."اهـ

والقـانون الـذي ذكـره مبـني على هـذا الاحتمـال، وهـذا احتمـال ممكن، وكونـه ممكنـا يـدرك بمجـرد فهم معـنى

العقول والنفوس الصافية المخلصة ما يؤهلهم للدفاع عن قـولهم بأدلة معتـبرة، لجـأوا إلى القـدح في كل وسـيلة يستخدمها جماهير المسلمين مثل النظر العقلي وأساليب اللغة المختلفة وغـير ذلـك، ومن هـذه الأسـاليب التأويل الـذي هو فـرع في إثبـات المجـاز والاسـتعارة والكناية وغيرها من أسـاليب اللغة العربية الأصـيلة في البيـان. قـدحوا في هـذا كله ليتمكنـوا بعد ذلك من أن يثبتـوا ما يريدون إثباته مما يتوهمون أنه ظواهر نصوص شرعية.

الظاهر ومعنى البرهان كما أشرنا، فالظاهر لفـظ محتمـل مع رجحانه إذا أخذ منفردا في معنى، وأما البرهان فهـو لا يستعمل إلا في القطعي من الأدلة، فصـار كمـا لـو كـانت المسألة: لـو تعـارض قطعي وظـني فكيـف يكـون الحـال فيهـا، فالـذي يقـول إننـا نقـدم الظـني على القطعي فهـو مخطئ كما لا يخفى.

المسـألة هكـذا، بهـذا البداهـة، وبهـذا الوضـوح، إلا عنـد المتلاعـبين من المجسـمة. وقـد قلتُ في تعليقـاتي على كتاب درء التعارض لابن تيمية زعيم هؤلاء المجسـمة ذوي الأصول الكرامية الدارمية، كلاما هو خلاصة هـذه المسـألة نذكره هنا لما فيه من فائدة:

والحاصـل من كلام الـرازي أن العقـل القطعي والنقـل القطعي لا يتعارضـان قطعـا، ولا يمكن تصـور ثبـوت التعارض، وكل دليـل عقلي إمـا أن يكـون دليلا برهانيـا أي قطعيا أو غير قطعي أي ظنيا، وكذا الـدليل النقلي إمـا أن يكون قطعيا ونقصد هنا القطعية في الدلالة والثبـوت معـا أو ظنيا في أحدهما أو كليهما، فالتعارض غـير متصـور بين العقلي والنقلي القطعي ومتصور في غير هـذا، فـإذا وقـع تعارض فالمقدم هو القطعي مطلقا سـواء كـان النقلي أم العقلي، فوجـه الـترجيح والتقـديم ليس هـو كـون الـدليل عقليا أو نقليـا بـل كونـه قطعيـا أو لا، وإذا تعـارض ظنيـان كان المقدم هو الأقوى.

والسلف لم يثبتوا كيفيةً أصلا ويفوضـوا العلم بها إلى الله تعـالى،بل لم يتكلمـوا أصلا في هـذه المسـألة، لأنهم أمـرُّوا النصـوص لوضـوحها كما جـاءت، وهـذا هو مـذهب التفويض الذي قدح فيه هذا الكاتب بعد أن صوَّره تصـويرا بـاطلا، فقـال إنهم يمـرون بنـاءا على التفـويض على النصـوص الـتي فيها الخلاف كآية الاسـتواء وآية اليـدين وغيرهما كما يمرون على الحروف المقطعـة، وشـتان بين هذا القول وبين ما يعتقده أهل السنة من مذهب التفويض حيث أجمعـــوا كلهم على أن التفـــويض إنما هو تأويل إجمالي والتأويل تفصيلي.

هذا هـو خلاصـة معـنى كلام الـرازي كمـا هـو ظـاهر، وقـد خصـص الكلام على حالـة واحـدة هي إذا كـان التعـارض واقعا بين قطعي عقلي وظـني نقلي، فالصـحيح إنـه يجب تقديم القطعي العقلي أيضا، وعدم تسليم مـا ينسـب إلى النص النقلي أي عـدم التسـليم بـأن المعـنى الفلاني هـو الظاهر، بل هو غير ظاهر لأنـه قـام الـدليل على اسـتحالة كونه مقصودا، أو يقال بالتفويض.

أما ابن تيمية، فليس كلامه هنا في نقض هذا الكلام مجردا أن إنـه لا يقصـد منـه الوصـول إلى نظريـة في المعرفـة شاملة وعامة، بل كل مراده هو الـدفاع عن عقيدتـه الـتي يعتقدها، وهي التي أوضحناها فيما تقـدم من كتابتنـا هـذه، وهي القـول بـالحيز والجهـة والأعضـاء وغـير ذلـك من التجسيم، فهو يحاول في كتابـه هـذا أن يصـور أن الـرازي ومن يشايعه وهم أهل السنة يردون النقـلَ بالعقـل، حـتى لو كانت عقولهم ضعيفة والنصوص صـريحة، وهـذا تشـنيع منه عليهم لا يستند إلى دليل كما سنرى أثناءتتبعنا لكلامـه من كتابه هذا.

وكـل من يقـرأ بدايـة كتابـه –أي درء التعـارض- يقـع في نفسه لجهالته أن هؤلاء العلمـاء فعلا يقـدمون العقـل على النقل، فيشرع بالتشنيع عليهم والتشـيُّع لابن تيميـة وغـيره من أتباعه، وهو لا يعرف حقيقة الإشكال.

وهـؤلاء الـذين ينتمـون إلى السـلف فى هـذا العصر يُقَوِّلونهم ما لا يقولـون، وينسـبون اليهم الفاسد من الآراء والمعانى، لا لشـىء إلا لأن أوهـامهم صـورت لهم أن هـذا هو الحق والمـذهب الصـحيح وهو فى الحقيقة قـول فاسد مبتــدع لا دليل لهم عليه قــائم بذاته إن هى إلا أقــاويلهم وادعاءاتهم وتهويلاتهم.

السـلف لم يقولـوا أن الاسـتواء معنـاه الجلـوس والاستقرار، ولم يقولـوا أن الله فى مكـان أو جهة وله حد من جميع الجهات وهو يتحرك بالانتقال من حيز إلى حــيز؛ وأنه تقـوم به الحـوادث والتغـيرات وأن خلقه يـؤثرون به وأنه ينفعل منهم وبهم. الى غــير ذلك من الترهــات. وأما عقائد أهل السنة أهل الحق فهى معروفة معلومة عند كل من له عقل.

ج- علم الكلام، الموقف منه

الموقف من علم الكلام، هذا الموقف الذى ينســبونه إلى السلف وهو موقف الرد التام والتبديع والتفســيق. بل التكفير فى كثير من الأوقات.

هذا الموقف هو ضحكة المتقـدمين والمتـأخرين، وهو السوط الذى يرهبون به كل من يقترب من علم الكلام.

والحقيقة أن فحول العلماء من أهل الإسلام، لا أقول الأشـاعرة والماتريديـة، بل جميع من انتمى إلى الإسـلام، تمسك بهــذا العلم واتبع مناهجــه، وكل فرقة وطائفة لها إبـداعاتها فيـه، وأهل السـنة - الأشـاعرة والماتريدية - هم باعتراف الجميع وصلوا إلى أعلى الدرجات التحقيقية فيه.

وهذا العلم، لا يخلو إما أن يكـون حقا أو بـاطلا. فـإن كان باطلا، فلنقل أن جمـاهير علمـاء المسـلمين تمسـكوا بالباطل وهذا مستحيل وإلا فهو حق فى ذاته.

وأما من قـــدح فيه من الأولين، فإنما كـــان قدحه متوجها على من تكلم فيه وغلـــط، ولا يمكن أن يكـــون قادحا في من تكلم فيه وأصـــــــاب وإلا وجب ردُّ قدْحِه وجرحه كائنا من كان.

وعلم الكلام فى حقيقة الأمــــر، هو بحث عن الأدلة اليقينية العقلية والنقلية التى تدعم قواعد الدين.

فهو ليس عبارة عن كلمات جامدة، ولا أحكام متعنتة ولا تعصبات عمياء.

بل هو بحث واجتهـاد وابتكـار. بل لا نجد فى علم من العلوم الإسلامية ما يبرز الهوية الإسلامية مثلما نجد فيه.

ولا يقدح فى هذا العلم على الإطلاق إلا كل جاهل، أو غير عالم بما فيه.

ولنا كلام طويل في هـــذا المبحث في أكـــثر من موضع(5[5]).

وهل يستطيع أحد أن يـدعي أن أحـدا غـير المتكلمين تصدى للفلاسفة.

هل سمعت عن حشوي أو مجسم تصـدى للـرد على نظريـات الملحـدين الكفـار، وغـيرهم ممن يقـدحون في أصـول الـدين وفروعـه، سـواءا في العصـور القديمة أو الحديثة.

بل نحن في هذا الزمان أشد ما نكون حاجة إلى هـذا العلم وإظهاره وإبراز محاسنه وتشجيع الأذكياء من الناس

5(?[5]) راجع كتابنا "تدعيم المنطق والكلام ".

على التمسك بما فيه، والخوض على قواعده ونشر الـدين والدفاع عنه بناءا على ما فيه.

ومن يــدعي أن المتكلمين قد قلــدوا الفلاســفة من اليونان والهنود وغيرهم، فهو جاهل لا يعي ما يقـول. فـإن الناظر في كتب هؤلاء والعارف بما ذكره المتكلمـون يعلم أنه لم يوجد نقد عقلي قوي ورد للفاسد من آراء البشر الا في كتب المتكلمين، كل هذا بالحجة والتدليل، لا بالصــراخ والعويل !

المبحث الثاني

بيان عقائد الماتريدية إجمالا

أ- **الاسـتدلال على وجـود الله** : من المعلـوم أن علماء المسلمين، وفي مقدمتهم الأشاعرة والماتريدية قد اتبعــوا كثــيرا من الطــرق في إثبــات وجــود الله تعــالى والاستدلال على صـفاته الجليلـة. وهم لم يحصـروا طـرق الاستدلال في عدد معين بل أن حصروه فـإنهم يحصــرونه كما تقتضيه الأدلة بجهات معينة، كالاسـتدلال على وجـوده تعالى من جهة إثبات أن العالم ممكن، أو الاســتدلال على ذلك من جهة كــون العــالم حادثــا، أو من جهة الاحتيــاج الكــائن في العــالم، أو من جهة الحكمة الظــاهرة فيــه، وهكذا.

ولكل جهة من هذه الجهات صـور عديـدة متكـاثرة لا تنحصر تحت عدد.

وقد اشـتهر من بين الأدلة الكثـيرة الـتي حققها أهل السـنة عـدد معين من الادلـة، كـدليل الحـدوث المعلـوم بصورته المعهودة، وهي الاستدلال على وجـود الله تعـالى وصفاته بإثبات أن العالم حادث، وهذا يتم بأشـكال عديـدة من القياس، ومن مقـدمات متعـددة متغـايرة، ولكنها غـير

متضــادة ولا متنــافرة، وقد اشــتهر من بين هــذه الصــور القياسية والمقدمات العديدة، تلك التي تنبني على تقسيم الموجودات إلى أعيـان، وهي الأجسـام وأجزاؤها الفـردة، ومن الأعراض وهي كيفيات تقوم بالأعيان.

وهذا الـدليل بمقدماته وتدرجاته المعلومة عند من له أدنى أطلاع، قد اشتهرت بين الناس العامة والخاصة، اشد الاشـتهار، حـتى تـوهم البعض انه لا يوجد دليل عند علمـاء الأشاعرة والماتريدية على وجود الله تعالى الا هذه الصور والمقدمات والقياسات.

وهذا التوهم إنما هو لعدم معـرفتهم بما يقوله علمـاء أهل الســنة المحققــون الــذين تتقاصر نفــوس هــؤلاء المعترضـين عن أن تمس معـاني أقـوالهم. فـتراهم دائما إنما يتعلقون بما يتوهمون من أقوالهم، وهو ليس كذلك.

وبناءا على هذه المقدمة المختصرة فيما يتعلق بهـذه المســألة نقــول، لقد شــرع مؤلف الكتــاب المــذكور بـالاعتراض على علمـاء الإسـلام وهم من ذكرنـاهم لـك، وعرفنـاك بهم، واتهمهم بـأنهم لا يتبعـون طريقة القـرآن الكريم في الاستدلال على وجود الخالق، وهـذا الكلام منه يستدعي الغاية من العجب.

فقد حض القرآن الكريم في أكـثر موضع على النظر في الكون وفي النفس الإنسـانية بـأكثر من أسـلوب وفي أكـثر منآيـة، وكـذلك حث علىالتفكر في الكـون من حيث وجــود الحكمة التامة فيــه، فهـذا يسـتدعي إثبـات وجــود الخالق، إلى غير ذلك من جوانب.

ونحن كما ذكرنا لك فإن أدلة المتكلمين وعلمــاء أهل الحق لا تتعدى هـذه الصـور والرسـوم. بل هي في أكثرها مستنبطة بتفاصيلها من القرآن الكريم.

فكيف يجوز لهذا المدعي الآن أن يقول أن طـريقتهم ليست هي طريقة القرآن ؟؟!

وماذا يعني هذا القائل بطريقة القرآن ؟ فلننظر فيما يقول..

قال في صفحة 33 عن منهج السلف في ذلك الذي ينسبه اليهم ويدعي أنه هو طريق القرآن " فقد استدلوا بالفطرة السليمة المضطرة بطبعها إلى الاقرار بوجود الله تعالى والاعتراف بالخالق " أهـ

ولنسأله عما يريده بالفطرة السليمة، هل يوجد فطرة غير سليمة ؟! وكيف تكون الفطرة غير السليمة موجودة، وقد ادعى أن الفطرة هي الخلقة التي خلق الله تعالى الناس عليها، وهي علوم ومعارف، فهل تكون هذه العلوم التي خلقها الله تعالى في الناس دلالة لهم إلى الحق غير سليمة ؟ ! وهل توجد إمكانية لتغيير الخلقة التي يخلقها الله تعالى لهدف معين على زعمهم، لتصبح غير سليمة، وبالتالي لا توجه الإنسان إلى ما هو مراد منه ؟!

إن هذا الكلام في غاية الاضطراب كما يظهر لك. والحق أن الفطرة ليست أمرا غير ما ذكرته لك في أول هذا الكتاب، وأن العلماء من أهل السنة لم يستخدموا في الاستدلال غير القوى التي منحها الله تعالى لهم، ليصلوا إلى الخالق.

وبهذا يتضح لك شدة فساد هذا المدعي هنا وأصحابه في كلامهم.

ونحن لا نقول أن كل الأدلة التي يوردها المتكلمون في كتبهم يستطيع أي إنسان أن يفهمها ويدقق فيها من أول نظرة، أو بجهد قليل. بل إننا نقول أن بعض الأدلة التي يوردونها تحتاج لعقل جامع وقلب ذكي وجهد عظيم، وهذه الامور لا تتوفر في كثير من الناس، وأيضا توجد بعض الادلة يسهل على عامة الناس أن يفهموها.

وهنا تكمن عبقرية علمــــاء الكلام، فـــإنهم لاحظـــوا اختلاف درجـات النـاس في الفهم والـذكاء، فوضـعوا لكل طائفة منهم ما يناســبهم من الأدلـــة، فمن يريد التــدقيق والتحقيق يجد ذلك ومن يريد الـــدليل العـــام الاجمـــالي والوعظ الكافي والحجة الخطابية فإنه يجده أيضا.

ولا ينبغي أن يعـــــترض على هـــــذا المنهج أحد من العقلاء.

فلا يجــوز لأحد أن يقــول أن الــدليل يجب أن يكــون واحدا لجميع الناس لأن من يقول هذا يخالف صريح العقل وواضح البيان.

ولهــذا فإننا نقــول أن منهج المتكلمين قد بلغ بهــذا الوجه مرتبة عالية من الحكمـــة، بخلاف غـــيرهم ممن لا يطيق ذلك.

ب- التوحيد

- أقسام التوحيد

التوحيد والوحدانية عند أهل الســـنة ينـــدرج تحتها مســـــائل، منها ما يتعلق بالـــــذات، ومنها ما يتعلق بالمخلوقات في علاقتهم مع الذات الالهية.

فأما ما يتعلق بالــذات، فيجب الاعتقـــاد أن الـــذات الالهية واحــدة وحــدة مطلقة من حيث هي ذات، متصــفة بصفات جليلة، منزهة عن شــوائب النقص، وعن الحــدوث ومسـتلزماته وعن مشـابهة الحـوادث من حيث هي حادثة من أي وجه كان.

ويجب تنزيه الله تعــالى والقـــول بوحدانيته في ذاته وصــفاته وأفعاله لأن الله تعـالى موجـود وله صـفات وله أفعال، فالوحدانية تتعلق بكل أمر من هذه الثلاثة.

فالوحدانية في الـذات : كـون الـذات لا يشـبهها شـيء فلا يوجد ذات متصـفة بالكمـال المطلق غـير ذات الله تعالى وأيضا فهي واحدة لا تتكـون من أجـزاء وليست مركبةلأن التركيب والأجزاء من سمات الحدوث.

والوحدانية في الصفات : كون الـذات موصـوفة ومتصـفة بصـفات الكمـال المطلق وأن هـذه الصـفات لا تنسب البغير الله كما تنسب اليه تعالى.

والوحدانية في الأفعال: كون الله تعـالى متصـفا بأنه فاعل خالق مختار اختيارا مطلقـا، لا يمنعه شـيء عما يريـد، ولا بـذلك الا هو تعـالى. فلا يجـوزأن ينسب معـنى أفعال الله تعالى وهو الخلق والابداع إلى غيره.

فهـــذه كلمـــات مختصـــرة توضح المـــراد بالتوحيد والوحدانية عند اهل السنة.

وقد اتفق على هذه المعـاني جميع المسـلمين، ولكن قد جـــرى الـــنزاع في أمـــور ادعاها البعض من غـــير أهل السنة فقال أن للتوحيد غير ما ذكرتم، وهى :

- التوحيد فى الربوبية.

- التوحيد فى الألوهية.

- التوحيد فىالأسماء والصفات.

وادعى أن تقسـيم التوحيد بهـذا الأسـلوب وما عليه السلف، وهو موجود فى كتبهم قاطبـة، وهـذا ادعـاء ليس عليه دليل بل هو باطل بالاسـتقراء نفسه الـذى يدعيه هو دليلا عليه.

وحقيقة هذه المسألة وهى تقسـيم التوحيد قد تكلمنا عليها فى أكـثر من موضع مما كتبنـاه، وذكرها العديد من العلماء، فالكلام فيها مشهور وتلخيص الكلام :

أن هذا التقسيم أن كان المـراد به هو التسـهيل على الأفهـام التوضـيح والتـدريس لعامة النـاس وطلاب العلم، فقد يتسـامح فيه بشـرط عـدم حصر الأقسـام بما ذكـروا، وهذا إذا خلا عن الغلط فى تقسيم المعـانى، ولكن الحـال غير هـذا، فقد بينا نحن أن معـانى هـذا التقسـيم المـذكور ليست بمستقيمة ولا تامة وفيها تلفيق وذكرنا أنها وضـعت أصلا كتقسـيم فى القـرن الثـامن الهجـرى من قبل بعض المجسمة أراد بها الرد على ما ذكره أهل السـنة من كلام فى هذا الباب. ولم يكن همه اسـتقراء المعـانى الشـرعية وتحقيقها ثم ذكر خلاصة ما بان له وظهر فى المسألة.

وحـتى لو سـلمنا لهم هـذا التقسـيم المـذكور، فلم يصـرون على أنه هو الـذى اختـاره السـلف - أى الصـحابة والتابعون والتابعون - وردوا غـيره، فى حين أننا نعلم وهم يعلمون أنه لم يظهر هذا التقسيم إلى حيز الوجـود إلا فى القرن الثامن الهجرى على يد شيخهم ابن تيمية ؟

وكل ما ورد من عبارات على لسان المتقـدمين فإنما هو إشـارات وبيـان لمعـانى الربوبية والألوهية والأسـماء والصفات، وردت متنـاثرة ولم يريـدوا بها حقيقة التقسـيم حتى جاء هؤلاء المدعون، وصاروا يتوهمون أن كل إنسـان تلفظ بكلمة الألوهية أو الربوبية فقد أراد بها ذكر قسم من أقسام التوحيد.ثم هم قالوا بناء على هذا التقسـيم أن توحيد الربوبية ليس كـاف فى الـدخول فى الإيمـان والإسلام، وأن المشركين كـانوا موحـدين توحيد الربوبيـة، وهذا الكلام فى غاية البطلان لما ورد فى نصـوص القـرآن من أن النصارى اتخذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابا من دون الله، ولما ورد فيه من أن مشـركى العـرب كـانوا يعبـدون غـير الله معتقـدين انه ينفعهم ويضـرهم. كما ذكرنا هـذا بتفصيل فى محل آخر.

ثم زادوا على ذلك بـأن قـالوا أن سـائر الأشـاعرة والماتريدية لم يحققـوا من أقسـام التوحيد إلا توحيد الربوبيـة، فسـاووا بينهم وبين المشـركين ؟؟! وتناسـوا أن

الغالبية العظمى من علماء الدين هم أشـاعرة وماتريديـة، أبــدعوا فى ســائر العلــوم وســيبقى هــذا من مفــاخرهم وشوكة فى عيون هؤلاء المجسمة عديمى التحصيل.

وهـؤلاء لا ينكـرون أن أغلب العلمـاء من المسـلمين والعامة هم أشـاعرة وماتريدية وذلك على طـول القـرون إلى هذه الأيام. ولكنهم يكابرون ويقولون لا يضرنا مخالفة الأكثرين حتى وإن كانوا من اعلم علماء المسلمين.

وعجبا لهم مع أن من بــرز اســمه منهم وجــاز له أن يتكلم مع اعوجاج رأيه وسـقم تفكـيره لم يتجـاوز عـددهم أصــابع اليــدين، الا انهم يــرون انفســهم قد حــازوا علــوم المتقــدمين والمتــأخرين ؟! وما هــذا الا غاية في الضــلال والجهل.

وهؤلاء أدخلوا قضايا التجسيم في صفات الله تعـالى، فقالوا له حد من جميع الجهات، وهو في جهة وفي مكــان سـموه عـدميا، وبعضـهم وجوديـا، ونسـبوا إلى الله تعـالى الحركة والانتقـــال من محل إلى محـــل، والقـــول بـــأن الحوادث تقوم بـذات الله تعـالى، وأن التغـير يطـرأ عليـه، جل شــأنه، إلى غــير ذلك من القضــايا الفاســدة، كنســبة العين واليدين اليه تعالى مع عدم نفي كونهما أعضـاءا، بل هم يعتقـدون كونها أعضـاءا وأجـزاء لله تعـالى عن ذلـك، ونسبوا اليه تعالى الاستقرار والجلوس على العرش(6[6]).

أدخلـــــوا كل هـــــذه المفاسد في قسم الاســــماء والصفات، واعتـبروه قسـما من أقسـام التوحيـد. وصـاروا يبدعون كل من خـالفهم فيه معتـبرين أنفسـهم أهل الحق والتحقيـق، واستصـغروا سـائر علمـاء الأمة ونسـبوا اليم الضـــلال، ولم يحكمـــوا بالجنة الا لمن ســـار على دربهم الفاسد هذا.

6(?[6]) راجع كتابنا "الكاشف الصغير عن عقائد ابن تيمية".

- أول واجب عىالمكلف

اشتهر عند أهل السـنة أن أول واجب هو معرفة الله تعـالى، وأنه لا يشـترط لصـحة المعرفة كونها عن دليل ونظر، ولكن هذا زيـادة في الكمـال. وذكـروا أن الإنسـان لكي ينال ثواب كلمة الشهادة لا بد أن يكون عارفا بمعناها وان من قالها من دون فهم معناها ودون تصـديق واعتقـاد لها فلا تفيده شيئا.

وقـرروا أن الإنسـان لا يمكن أن يُعـرَفَ دخوله في الدين شرعا الا بأن ينطق بكلمة التوحيـد. ولهـذا قـالوا أن نطق المكلف بالشهادتين هو شرط لإجراء أحكام الإسـلام عليه. وهذا الكلام في غاية التحقيق.

وأما الكلام الـذي ذكـره المؤلف المـذكور فهو يـدل على جهله التـام بما في كتب القـوم، وليس هو الا ثرثـرة زائدة.

فلا يسـتطيع أحد أن يخـالف ويقـول أن النظر في حقيقة الـدين ليس واجبا وان الأخذبالأدلة غـير واجب، بل هما واجبـان، ولكن إيمـان المقلد صـحيح مثـاب عليه مع تقصيره في النظروالبحث.

ولم يقل أحد من الأشـاعرة والماتريدية أن الكـافر لا يجب عليه أول ما يجب لكي يعصم دمه أن ينطق بكلمة التوحيـد.ولكن الخلاف وموضع الكلام عنـدهم أنها لا تكفيه عند الله تعالى الا أن كانت معانيها عنـده صـحيحة معتقـدا بها مستقرا إلى هذا الاعتقاد.

والتطويل في هـذا الموضـوع زيـادة على ما ذكر لا يفيد.

جـ - الصفات

أما الصــفات والخلاف فيهــا، فتلخيصه أن الأشــاعرة والماتريدية ينفـــون عن الله تعـــالى صـــفات الحـــوادث والأجســـــام كالحد والمقـــــدار والحركة والحـــــيز والجهة والتركيب والاجزاء والانفعال والتأثر بالغير، وهـؤلاء الـذين يخالفونهم يثبتون كل ذلك.

وليس الخلاف حول صفة ثبتت أصلا لله تعالى.

فلو نفى هـــؤلاء المجســـمة ما أشـــرنا اليـــه، لبطل الخلاف وانمحى.

ولا تتـــــــوهم أن الخلاف هو في أنه هل يوجد لله يد ووجه أم لا، فكثــير من الأشــاعرة قــالوا لله وجــه، ولكن الخلاف هو هل هـذا الوجه هو من قبيل الأعضـاء والاجـزاء ام لا ؟؟؟

فكل الأشـــاعرة نفـــوا ذلـــك، وكل المجســـمة ممن خالفوهم لم ينفوه.

وكذلك في اليد وغيرها.

واما الاستواء فقالت المجسمة هو الجلوس والحلـول والاستقرارعلى العرش والكون في مكان.

وعند الاشــاعرة : لا ضـــرر في إثبــات الاســتواء لله تعالى بل يجب اثباته ولكن لا على سبيل الكون في مكـان والجلوس كما تقول المجسمة.

هذا هو أصل الكلام، وكل ما سواه فهو تهويل لا يــراد به وجه الله تعالى.

فما دام الامر كــذلك، فمن هو أقــرب إلى الصــواب، الذي ينزه اله تعـالى عن مشـابهة الحـوادث أم من يقـول بذلك ؟!

وأما قولهم أن الأشاعرة لا يثبتون الا سبعة صفات أو ثمانية أو غـير ذلك من الاعـداد، فما هو الا كـذب عليهم، لأنهم كلهم أجمعـوا على أن كمـالات الله تعـالى الـتي هي صـفاته لا يـدرك حـدها لأنه لا حد لهـا، فلا نهاية لكمالاته تعـالى، واما العـدد المـذكور في كتب التوحيد فليس هو حصـرا لصـفات الله تعـالى، بل هو توضـيح وتعليم لعامة النـاس أقل ما يجب عليهم أن يعلمـوه لكي يصح إيمـانهم ويستقيم إسلامهم، وإلا فـإن الله تعـالى لم يكلفنا بمعرفة جميع صفاته وأسمائه، لأن ذلك من تكليف ما لا يطاق.

د- الإيمان

لما نظر أهل السنة في هذه المسألة وسبروا جوانبها وحققوا نواحيها وجدوا أن الحاصل ثبوت ثلاثة معاني :

الأول : التصديق القلبي وهو مع الإقرار والإذعان.

الثاني : التلفظ باللسان بكلمة الشهادة.

الثالث : العمل بالأوامر الشرعية، كالكف عن شـرب الخمر وأداء الصلاة.

ووجـدوا الشـرع لا يحكم بكفر من شـرب الخمر ولا من ترك أيَّ أمر من أوامر الشريعة، إلا أن يكون مستخفا مستهينا او معاندا.

علموا أن العمل ليس داخلا في ماهية الإيمـان الـذي يتم بناء عليه عدم الخلود في لنار.

ووجـدوا عـدم دخـول الأعمـال في ماهية وحقيقة الإيمان واضحا، فلم يحصل خلاف بينهم فيها.

أما التلفظ فلما رأوا أن الشارع حكم بايمان الأخرس وإن لم يتلفظ لأنه لا يستطيع، ووجدوا العديد من الآيات تدل على أن الإيمان المذكور أصله في القلب أيضا.

ثم لما لاحظوا أن الشارع رتب الحكم على الإنسان بالكفر أو عدمه بكونه قائلا بكلمة التوحيد أو لا، قالوا أن التلفظ هوشرط لإجراء أحكام المؤمنين عليه،لأننا لا يمكن أن نعرف المؤمن من غيره الا إذا قال أو فعل فعلا يدل على ذلك. وأقرب الأمور الدالة على ذلك هي القول والتلفظ بكلمة التوحيد.

واما التصديق القلبي مع الاذعان المذكور فلا خلاف بين المسلمين أنه داخل في حقيقة الإيمان المعتبر شرعا في الحكم بنجاة الإنسان والمكلف من الخلود في النار وإن دخلها لمعصية فعلها.

فهذا هو ما عليه المحققون وجمهور العلماء، وهو التحقيق في هذه المسألة.

ونقل الخلاف عن ابي حنيفة، أنه اعتبر التلفظ جزءا من حقيقة الإيمان، ويكاد الخلاف يكون لفظيا بين هذا القول وبين ما قال به الجمهور من المحققين.

أما الأعمال، فقد بالغ الحشوية المجسمة في القول بأنها تدخل في صميم الإيمان، ومع ذلك لم يحكموا بالكفر على كل من ترك عملا، وهو تناقض صريح.

وسبب غلطهم أنهم لم يفرقوا بين أنه يطلق على الأعمال أنها إيمان، وبين كونها هي الإيمان أو جزءا من الإيمان أصل المسألة.

فلا شك أنه يطلق على الأعمال شرعا ولغة أنها إيمان، وكذلك على الأقوال، كما يطلق على التصديقات، وكل إطلاق من حيثية معينة.

ولكن الخلاف أصـلا،بل أصل المسـألة هي ما هو أقل قدر يجب علىالمكلف أن يحققه، لكي ينجو من الخلود من النار.

هـــذا هو أصل المســـألة، وليست المســـألة هي هل يطلق على الأعمال ايمان أو لا يطلق.

واما كلام المؤلف في هـــذا المبحث، فهو كلام غـــير مستقيم ولا يفيد وليس فيه جنس التحقيق.

وكل ما يمكن أن يقـال بنـاءا على غـير هـذا الأصـل، فهو كلام لا يلتفت اليه.

هـ- النبوات، مبحث العصمة

لخص شـيخ الإسـلام زكريا الانصـاري مسـألة عصـمة الأنبيــاء في كتــاب غاية الوصــول، تلخيصَ تحقيق كما هو المعهود منه فقال في ص91:

الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام معصـومون، حـتى عن صغيرةٍ سهوا فلا يصـدر عنهم ذنبٌ،لا كبـيرة ولا صـغيرة لا عمـدا ولا سـهوا. فـإنْ قلتَ : يُشـكِلُ بأنه صـلى الله عليه وسـلم سـها في صـلاته حيث نسي فصـلى الظهر خمسا وســـلم في الظهر أو العصر عن ركعـــتين وتكلم.قلتُ :لا إشكال على قول الأكثر الآتي ويـدل له خـبر البخـاري إني أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني.

وأما على القول المذكور فيجاب عنه،بـأن المنع من السهو معناه المنع من استدامته لا من ابتدائه، وبأن محله في القـــول مطلقا وفي الفعل اذا لم يـــترتب عليه حكمٌ شرعيٌّ، بدليل الخبر المـذكور.لأنه صـلى الله عليه وسـلم بُعِثَ لبيان الشرعيات.

ثم رأيتُ القاضي عياضاً ذكر حاصل ذلك ثم قال : " إن السهو في الفعل في حقه صلى الله عليه وسلم غير مضاد للمعجزة، ولا قادح في التصديق."

والأكثر على جواز صدور الصغيرة عنهم سهوا الا الدالة على الخِسَّةِ كسرقة لقمة والتطفيف بتمرة، وينبهون عليها لو صدرت.أهـ

فهذا هو حاصل مذهب الأشاعرة والماتريدية.

ولا يلزم على هذا القول محال ولا استخفاف بنصوص الشرع كما قال هذا المدعي، ولا تأويل لما ورد منها، لأن من قال انها تدل على جواز صدور الذنوب والخطأ منهم، إنما يقول هذا بفهمه المردود المعارض لما قاله هؤلاء العلماء، مع عدم الانتباه لما قاله المشايخ.

وما دام قد تقرر مذهب أهل السنة كما مضى، فقد حددوا موقفهم وطرقتهم في فهم النصوص بناءا على الاستقراء والبرهان، فقال الامام السعد التفتازاني في ص 191:

اذا تقرر هذه، فما نُقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية، فما كان منقولا بطريق الآحاد فمردود، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره أن أمكنَ، وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة. أهـ

وهذا ما أطلق عليه مصنف الكتاب متعلَّق هذا النقد بأنه تحريف قبيح، وكلامه هذا قبح منه يدل على سخف عقله وسماجة فكره.وبهذا نكون قد أتينا على ما أردنا ذكره في هذه التعليقة المختصرة. وأدعو الله تعالى أن ينفعنا بها والمسلمين.

خاتمة

في بيان من هم أهل السنة

وقد أحببنا أن نختم هـــــــذا التعليق اللطيف والنقد المنيف ببيان من هم أهل السنة والجماعة على التحقيــق، وذلك بذكر كلام ابن السبكي التاج رحمه الله تعالى الــذي ذكره في شرح عقيـدة ابن الحـاجب وأورده محقق كتـاب "إشـارات المـرام من عبـارات الإمـام " للعلامة البياضي رحمه الله تعالى في ص298:

"إذا أطلق أهل الســـــنة والجماعة فـــــالمراد بهم الاشاعرة والماتريدية.

وقال ابن السبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب :

" اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجـوز ويسـتحيل وإن اختلفـوا في الطرق والمبادئ الموصلة لذلك.

وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف

الأولى : أهل الحـــــديث، ومعتقد مبـــــاديهم الأدلة السمعية - الكتاب والسنة والاجماع.

الثانية : أهل النظر العقلي وهم الأشـــعرية والحنفية (الماتريدية) وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشـعري، وشـيخ الحنفية أبو منصور الماتريـدي. وهم متفقـون في المبـادئ العقلية في كل مطلب يتوقف السمع عليه، وفي المبــادئ الســـــمعية فيما يــــدرك العقل جــــوازه فقط والعقلية والســـمعية في غيرهـــا،واتفقـــوا في جميع المطـــالب الاعتقادية الا في مسائل.

الثالثة : أهل الوجـــــدان والكشف وهم الصـــــوفية، ومباديهم مبادي أهل النظر والحـديث في البداية والكشف والإلهام في النهاية" أهـ.

وهو كلام في غاية الإفـادة، ولاحظ أن مـورد قسـمة أهل السـنة إلى هـذه الطوائف الثلاثة إنما هو راجع إلى مصدر أخذهم للعقائـد، بمعـنى إن الجميع من أهل السـنة يأخذون بالكتاب والسـنة والعقـل، ولكن بعضـهم يركز في تثبيته للعقائد على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وهؤلاء نحو الإمام البيهقي وغيره، وهؤلاء لا يغفلون العقل ولا النظر العقلي، ولكن أكـثر معتمـدهم على المنقـول، وهؤلاء يسمون بأهل الحديث.

ومن أهل السـنة مَن يركز أكـثر على الأدلة العقلية والبراهين النظرية، كالإمام الـرازي والغـزالي والتفتـازاني وغـيرهم من العلمـاء، وهـؤاء لا يقـال إنهم يغفلـون الأخذ بالكتاب والسنة ولا يقال إنهم يتهاونون بها، ولكنهم وجهـوا أنظـارهم إلى تحقيق الأدلة النظريـة. وهـؤلاء يكملـون ما بدأته الطائفة الأولى، ويسمون أهل الكلام والنظر.

وطائفة من أهل السـنة من يركـزون أكـثر على المعاملة، والمقصـود من هـذا أنهم يرجعـون في الاعتقـاد إلى طريقة أهل الحـديث والنظـر، ولكنهم يتمـيزون ببيـان نتائج العقائد الدينية على روح الإنسان، ويحاولون بيـان ما يشعرون به في جنانهم باللسان، ومنهم أبو القاسم الجنيد والحارث المحاسبي وغـيرهم، ويحـاولون إرشـاد الإنسـان إلى الطـرق العملية الـتي تسـاعد على تثـبيت العقائد المأخوذة بالطرق السـابقة. وهـؤلاء يسـمون بالصـوفية أو أهل الذوق.

فالحاصل أن جميع هـذه الطوائف عقائـدهم واحـدة، ولكن مآخـذهم متنوعـة، ونلاحظ أن كل واحـدة من هـذه الطوائف لا تنكر مأخذ غيرهـا، ولكن كل واحـدة تتمـيز بزيادة اعتمادها على نوع من الأدلة، فهو تنوع تـابع لتغـاير طرق الاستدلال، وليس تابعا لتغاير المستدل عليه. بمعنى أن عقائد الجميع واحـدة، ولا يجـوز أن يعتقد المحـدث خلاف ما يعتقد به المتكلم، ولا يخـالف الصـوفي المتكلم. بل الجميع ملتهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، وهم على قلب

رجل واحد. واختلاف طرقهم لاختلاف طبـائع النـاس، فمن النـاس من يميل بطبيعته إلى الـذوق ومنهم من يميل إلى النظر ومنهم من يميل إلى النقل بمجـــــــرده. وكل منهم ممدوح ليس بمقدوح، ولا اعتراض على واحد منهم.

ولا يخفى أن بعض الذين انتموا إلى الإسلام وانتسبوا إلى المحدثين قد ضلوا، فمالوا إلى التجسيم أو غيرها من البـدع، وأن بعض من انتمى إلى الإسـلام وانتمى إلى أهل النظر والكلام، قد قال ببعض ضلالات الفلاسـفة وغـيرهم، وأن من انتمى إلى الصـــوفية قد قـــال ببعض ضـــلالات الباطنية، ولكن وجـود هـؤلاء المنحـرفين لا يعـني ذم أصل الطريقة.

وندعو الله تعـالى أن يضع هـذا الكتـاب في كفة الحسنات في يوم الدين، وينفع به المسلمين.

وليس لنا إلى غير الله تعالى حاجة ولا مذهب تم إنجاز هذا الرد والتعليق في يوم واحد بتاريخ 26 من ذي القعدة سنة 1415 من الهجرة المباركة

الموافق 26/4/1995 م

سعيد فودة